لكي لا نسفح الحقيقة على مذبح الوهم
ونفرغ القرب بانتظار السحاب

يكاد المرء يؤكد الآن أن الجزرة التي لوح بها جورج بوش أمام عيوننا على طرف كرباجه، وأعني بها التصريح عن الدولة الفلسطينية بينما الإسرائيليون ماضون قدما في الاغتيالات، أكذوبة أخرى من سلسلة الأكاذيب التي حفلت بها تصريحات الغرب على امتداد تاريخ القضية الفلسطينية.

هو تصريح مفاجئ، مبهم، مختصر، وصفناه في مقال سابق بكونه أشبه بشيك مجهول القيمة مسحوب على بنك مجهول محل الإقامة. وما أصدق خالد الطرعاني الناشط العربي الفلسطيني في الولايات المتحدة حين سئل من قبل إحدى الفضائيات: هل ثمة توقع بأن ينجم عن تصريح الرئيس الأمريكي شيء فعلي؟ فأجاب بالمثل الفلسطيني البسيط: (لو بدها تشتي لغيمت). أي أن المراقب المتابع في الولايات المتحدة لا يجد أية بادرة من قبل الدوائر الأمريكية المختصة تضيف إلى ذلك التصريح المبهم ترجمة نظرية أو تزوده بإجراءات عملية مقترحة.

ويتعزز مع مرور الأيام الشك الذي نظر به الجميع إلى تصريح بوش منذ الوهلة الأولى، حتى بات الناس يرجحون أن الرؤية الموضوعية الصحيحة لا تضع تصريح الرئيس الأمريكي إلا في خانة الأعمال الدعائية التي ترافق تهيئة المسرح الدولي لاسيما الساحة العربية والإسلامية للعمليات الحربية التي بدأتها أمريكا وبريطانيا على أفغانستان، وتوالت التصريحات من قبل المسؤولين الأمريكيين بأنها ستمتد إلى بلدان أخرى.

سيطول بنا المجال إذا قلبنا سجلات الماضي لنسوق الشواهد على التصريحات الأمريكية التي انطوت على وعود للعرب ينطبق عليها قول الشاعر العربي: (كانت مواعيد عرقوب لها مثلا وما مواعيدها إلا الأباطيل!). ولكن من الضروري أن ننظر جيدا في الحاضر لنقرأه القراءة الصحيحة وإن كانت مؤلمة. فأية دولة فلسطينية يمكن أن يتوصل إليها الفلسطينيون إذا كانوا سينتزعونها بالمفاوضات من بين أنياب أشد تركيبة سياسية إسرائيلية تشددا وتعنتا وحقدا وإجراما منذ قامت إسرائيل حتى اليوم؟ إن هذه التركيبة مؤهلة لصنع المذابح والتخريب والتهجير والتوسع وحسب. وإذا افترضنا أن معجزة ستؤدي إلى استخلاص دولة فلسطينية من بين تلك الأنياب فلن تكون إلا مزقا ممزقة. بل إننا إذا شئنا أن نرى الأشياء على حقيقتها يجب أن نقول إن الجمهرات الإسرائيلية التي انتخبت شارون وحكومته إنما انتخبتهم لأنهم الأكثر عداء والأكثر نزعة للحرب والعنف لا للتسوية والسلم. وهذه الظاهرة ظاهرة الاتجاه إلى اليمين كما سماها علماء الاجتماع السياسي في إسرائيل لم تبدأ بانتخاب جنرال المذابح شارون، فقد سبقه انتخاب جنرال الاغتيالات باراك، ولم يكن انتخاب نتنياهو قبلهما أقل دلالة على تلك الظاهرة.

والشيء نفسه يقال عن الوضع في الولايات المتحدة. فالمرشح للرئاسة الأمريكية أو للكونغرس بمجلسيه يعد التعهد برعاية تفوق إسرائيل عسكريا ودعمها اقتصاديا ونصرتها سياسيا بمثابة شرط لا بد منه لنجاحه في الانتخابات. وكل رئيس ناجح في دورة أولى يعمل من أجل النجاح في الدورة الثانية. والمتابع لمواقف الكونغرس في السنوات السبع الأخيرة على الأقل يلمس تحيزا صارخا لإسرائيل مهما طلبت ومهما ارتكبت من جرائم بحق الفلسطينيين. فأية دولة فلسطينية يمكن أن يتوصل إليها الفلسطينيون بموافقة رئاسة وكونغرس من هذا النوع.

من هنا فالحقيقة أن أقصى ما يملك الرئيس بوش أن يفعله هو مناشدة شارون أن يهدئ اللعب في بعض

الأوقات لئلا تتسبب الوتيرة المتلاحقة في تعبئة المنطقة بحيث يصعب وضعها ثانية تحت السيطرة.

ومن هنا أيضا فإن التركيز على جبهتنا الداخلية ورعاية وحدتنا الوطنية والامتناع عن التضحية بها على مذبح الوعود الأمريكية والإسرائيلية هو السياسة الصحيحة. ولا يمكن للمرء أن يكسب العالم إذا خسر نفسه!

عودة المغتربين قسرا

من الأسئلة الحرجة التي تفرض نفسها علينا سؤال حول مصير المغتربين العرب والمسلمين المتجنسين المقيمين في الولايات المتحدة، وفي الغرب عموما، بعد أحداث الثلاثاء الرهيب في الولايات المتحدة.

هل يعودون إلى أوطانهم؟ هل يبقون في مغترباتهم ومنافيهم الاختيارية هناك؟ كيف يعيشون؟ وما الذي يتعرضون له حينا بعد حين، مع كل طور جديد من أطوار الحرب الإعلامية التي يؤججها اللوبي الصهيوني المتحكم في الولايات المتحدة؟

يتجدد هذا السؤال بمناسبة سفر الوفد الوزاري الإسرائيلي، المكون من ثلاثة وزراء، إلى الولايات المتحدة، ليكون واجهة الحملات الإعلامية الهادفة لإتمام عملية غسل الدماغ في طول الولايات المتحدة وعرضها وتشكيل العقل العام وفقا للمقولات الصهيونية وأكاذيبها الملفقة، وأولها في اللحظة الحاضرة الزعم أن غول الإرهاب كامن في كل عربي ومسلم، وأنه ينبغي التوجس والحذر منهم على الأقل، ولا مانع من العدوان عليهم كلما سنحت الفرصة، لأن الشر يتمثل فيهم حصرا.

فمنذ الحادي عشر من أيلول الماضي لم يترك شارون مناسبة ولم يدخر وسعا في انتهاز الفرصة والتأليب على الفلسطينيين والعرب والمسلمين في الشرق والغرب، مطلقا جعيره المنكر، قائلا إن إسرائيل في الشرق تتعرض منذ زمن بعيد للإرهاب ذاته الذي تعرضت له الولايات المتحدة في الغرب، وأنه آن الأوان لتقتنع الولايات المتحدة بذلك وتتبنى سياسة أشد تنكيلا من السياسات التي اتبعتها ضدنا حتى اليوم.

حسبي الله ونعم الوكيل! فمثل هذه الدعايات اللئيمة تلقى آذانا مفتوحة في الغرب الذي لا يسمع صوتا غير الصوت الصهيوني. فكأنما قدر على هذا الشعب أن يتقلب على عذاب بعد عذاب. ولم تكفه محن الضيق التي تعرض لها في بلاده العربية: محنة حرب الخليج التي استثمرها الموساد ووزارة الخارجية الإسرائيلية لتهجير أعداد كبيرة من الفلسطينيين إلى أبعد البلدان.. ومحنة بطالة أصحاب الكفاءات من أبنائنا أو سوء معاملتهم في أوطانهم مما اضطرهم للهجرة.. ومحنة الاستبداد السياسي والأنظمة البوليسية في معظم البلدان العربية، التي هي عامل آخر طارد لكثير من العناصر. لم يكفهم ذلك كله حتى استيقظوا ذات صباح فيما حسبوه أوطانهم الجديدة، فإذا بهم في نظر السكان الآخرين عناصر خطرة ينبغي عدم الاقتراب منها، وهو الحد الأدنى لتدابير الأمن واليقظة.

حسبي الله ونعم الوكيل! وما كفى الإسرائيليين أنهم أخرجوا الفلسطينيين من ديارهم، ثم نفوهم إلى آخر الأرض ليأتوا بيهود محلهم من آخر الأرض، حتى لحقوا بهم هناك محرضين عليهم وعلى شعبهم، بحيث يبدو الحل الوحيد أمامهم هو الهجرة من جديد من الغرب إلى الشرق.

وإذا كانت المصائب لا تخلو من إيجابيات، فعسى أن يكون في عودة المغتربين إلى ديارهم جانب إيجابي لا نراه الآن، ولكنه سيتجلى لنا ذات حين.